سيادة العرب في العصرين الأموي والعباسي

دفعت الفرس إلى إثبات تَفَرُّدِ قوميتهم المزيف

إن الصراع هو السِـمَةُ الثابتة في العلاقات العربية الفارسـية، على اعتبار أن الفرس رَأَوا في القضـاء على العـرب مقدمة للقضاء على الثقافة، ومسـح الهوية الإسـلامية، ومن ثَـمَّ التمكين للمعتقدات الفارسـية، خاصة في بُعْدِها الزرادشتي. وإذا كانت المواجهات بين العرب والفرس تبقى إحدى مظاهر العداء الفارسـي، فإن بداية العصر العباسـي شهدت مواجهات من نوع خاص، بالنظر إلى التعايش الحَذِر بين العرب، أصحاب الشـوكة، والفرس الخاضعين تَقِيَّةً لسلطان العرب.

في هذا السـياق، وأمام حالة الوهن والضعف الفارسـي، لجأ هؤلاء إلى تَبَني تكتيكاتٍ جديدة في مواجهة العرب، وهي التكتيكات التي استمرت إلى يومنا هذا وأطلق عليها في أدبيات المواجهات العسـكرية بـ "الحرب بالوكالة". وهنا يظهر بـأن إيران الحالية لم تبتدع صناعة الأذرع العسـكرية والحركات العميلة، وإنما هو تكتيك فارسـي مُتوارث منذ العصر العباسـي الأول، حين راهن الفرس على "الشـعوبية" لضرب العرب ونسف الدولة العربية الإسلامية انطلاقًا من مركز ثِقْلِها.

وارتباطًـا بالسـياق التاريخي، يرى بعض المؤرخين بأن الشـعوبية "حركـة ثقافية حضارية مناهضة للعرب، كان العراق ذلك المسـرح الـذي ظهرت عليه..؛ لأنه كان مُلتقـى العنصر العربي الغالب بالعنصر الفارسي المغلوب...، وبقيت مسـتترة طُوال العصر الأموي، حتى نجح العباسيون في إنشـاء دولتهم، واسـتخدموا الموالي، واسـتعملوهم في المراكز الهامة..وتسـلَّطت عليهم (الشـعوبية) النزعة القومية، فقويت حركة الشعوبية بينهم، وتصاعد خطرها، إذ تحولت إلى ما يشبه المنظمات التي كان يشـرف عليها، ويخطط لها، وينعهّدها ويسـاعدها رؤسـاء من الوزراء والأدباء والكتاب والشعراء من الموالي الفرس".

ويمكن القول بأن سيادة العرق العربي في العصر الأموي والعباسي دفعت بقية "الشعوب" إلـى محاولة إثبـات الذات وإظهار التفرد القومـي، وذلك بإعلان رفضهم لكل ما هـو عربي ومن ثَمَّ "حاول أبناء الشـعوب الأخرى أن يُثْبِتُوا للعرب هوياتهم ووجودهم، ويُثبِتُوا لهم أنهم ليسـوا أفضل من سائر الأمم".

وهنا لابد من التوضيح أن المسـلمين العرب، باعتبارهم حَمَلَةَ الإسلام الأوائل إلى غيرهم، لم يكونوا لينتصروا للعِرْق، ذلك بأن معيار التَمَيُّزِ والنجاح والارتقاء في الإسـلام ليس العرق أو اللسان أو اللـون؛ وإنما التقوى والالتـزام بثوابت النص الديني. ولذلك نُرجـح أَنَّ تَغلُّبَ الهوى العرقي جعل الفرس والشـعوبية يتأولون هذا البعد عند المسـلمين الذين أرادوا صهر جميع العرقيات في بوتقة الإسـلام الذي جاء ليقطع جميع منافذ التفرقة وعلى رأسها العرقية والقَبَلِيَّة والفِئَوية.

> **انتشرت الشعوبية بين مجموعة من الأعراق غير الفارسية، إلا أن الفرس ظلوا أصحاب الضبط والربط والتوجيه**

إن الأمانـة التاريخيـة والاسـتقامة في التلقي والنقل تقتضيان الإشارة إلى أن الشعوبية انتشـرت بين الأعراق غير الفارسـية، ومن بينهم "النبـط والقِبْط، والأندلسـيين، والـرُّط من أهل السـند، والزنج من أهل إفريقيا...، واجتمع هؤلاء على الشـعوبيةُ رغم اختلاف أصولهم وأجناسهم، ومُفاخرتهـم (على العرب) واسـتطالتِهم عليهم، وخطهم من شـأنهم، وعدائِهم لهم. ولكن شيوع الشـعوبية بين الأمم الأخرى لا يقلـل من الدور الكبير الذي لعبه الموالي الفرس فيها، فهم أصل الداء وموطن البلاء".

ولعـل أخطر ما ميز "الشـعوبية" وما جعـل الفرس يتبنـون تكتيكاتها إلـى اليوم (حركة المحرومين وغيرها) هـي ركوبها على المطالـب الاجتماعية، ومن ثَمَّ التحول إلى حركة سياسـية تسـتهدف إسـقاط رأس السـلطة السياسـية. وهي الاسـتراتيجية التي تَبَنَّتْها تنظيماتُ الإسلام السياسي، سـواء المحسـوبة منها على السُّـنَّة أم الشـيعة. ولتفكيك هذه النقطة يقول المُنْظر الشيعي علي شريعتي: "وقد حملت الشعوبية في بداية ظهورها شعار (التسوية) أي مساواة العجم بالعرب...، ولكن بعد فترة تَحَوَّلت الحركة الشـعوبية تدريجيًّا من حركة (تسـوية) إلى حركة تفضيل، تدعـو إلى تفضيل العجم علـى العرب، وعملت عبر ترويج المشـاعر القومية وإشـاعة اليأس من الإسلام إلى ضرب سلطة الخلافة".

إن دراسـة الحركة الشـعوبية لَتُعَدُّ مدخلًا أساسـيًّا لفهم الطفرات التـي تعرفها المطالب الاجتماعية، عندمـا تكون مُنْطلقاتها عنصرية. وهنا يعتمد العرق الطارئ على تبني جبهة الدفاع عن المطالب الاجتماعية والدعوة إلى الحرية والمسـاواة وبقية الحقوق، وذلك بتوسيع القاعدة المادِّيَّة، ومن ثَمَّ العمل على تسـعير الجماهير ودفعها إلى الانقلاب على رأس السلطة السياسية.

ادعاء الشـعوبية الحيفَ والظلمَ مسـوغات دفعت أصحابها إلى إعلان العداء للعرب، عداءً لا تدعمـه القرائن التاريخية، إذ تقطع بأن الشـعوبية تمتعوا بالمسـاواة المطلقـة في عصر الدولة العباسـية، واحتلوا أهم المناصب السياسـية والاقتصادية حتى داخل البلاط العباسـي. ولكن هذا الواقع الجديد لم يجعل حقدهم ضد العرب يتلاشـى، بل "تألّفَ غوغاؤُهم وزعماؤهم وأهل الرياسـة والسياسـة منهم، وتنامى شعورهم القومي تناميًا عظيمًا حتى تفاقم شرُّه، فإذا هم تزداد معاداتهم للعرب، وتشتد مناوأتهم لهم، حتى أخذوا يجهرون بها جهرًا".

إن اختلاف مشـارب الشعوبية واختلاف منابتهم ومطالبهم لم يمنع من تحالفهم على هدف واحـد ؛ وهو معاداة كل ما هـو عربي، ولو أدى ذلك إلـى الانقلاب على سـلطان أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

المراجع:

1) بو ملحم علي، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، ط2 (بيروت: دار الطباعة والنشر، 1988).

2) حسـين عطوان، الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول (بيروت: دار الجيل، 1984).

3) حسـين عطوان، الدعوة العباسية تاريخ وتطور، ط2 (بيروت: دار الجيل، 1995).

4) علي شـريعتي، التشيع العلوي والتشـيع الصفوي (بيروت: دار الأمير للثقافة والعلوم، 2002).

5) السـيّد سـالم، العصر العباسـي الأول (الإسـكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1993).